الأخلاق بين العاطفة والعقل

عند جون جاك روسو

(1778/1712م)

د/ مسعود طيبي

أستاذ محاضر بالمدرسة العليا للأساتذة

بوزريعة ــ الجزائر

إن الحضارة الغربية وما تميزت به من علوم وفنون وتقنية ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية، وما نتج عنها من تحولات في القيم الأخلاقية والعادات الاجتماعية، أثرت في الصورة التي أنشأها الذهن للإنسان، وفي المكونات الأساسية له كجوهر خاص، وهو ما عرض هذه الحضارة المعاصرة إلى النقد اللاذع، بحيث ترتبت عنه ضرورة إعادة النظر في ماهية هذا الإنسان، وتمييز ما هو طبيعي فيه مما هو غير طبيعي، وأيهما أصلح لحياة سعيدة للإنسان يسودها السلم والوئام والتعاون.

في هذا المعنى طرح جون جاك روسو، مسألة الموازنة والمفاضلة بين العقل والعاطفة، وأيهما أفضل وأصلح كأساس للقيم الأخلاقية وللحياة البشرية السعيدة، وكفيلسوف من فلاسفة العقد الاجتماعي، وما ترتب عن هذا العقد، من افتراض وجود حالة طبيعية عاشها الإنسان قبل انتقاله إلى الحالة السياسية، فقد عقد مقاربة بينهما لمعرفة الأفضل في حياة البشر.

كانت إجابة جون جاك روس مؤيدة لحياة سعيدة عاشها الإنسان في الحالة الطبيعية معتمدا فيها على العاطفة أكثر من اعتماده على العقل، وفي المقابل يرد أسباب شقاء الإنسان إلى العقل وما ترتب عنه من علوم وفنون وتمدن حضاري خلال المرحلة التي أعقبت الحالة الطبيعية، ويحملها مسؤولية انهيار القيم الإنسانية وتعاسة الإنسان.

ويرى روسو أن موقفه هذا ليس اعتباطا وتحاملا على العقل والحضارة لا مبرر له، بل استمده من الرجوع إلى الطبيعة الإنسانية السليمة، وما انجر عنها من سلوك، لذا نراه يقف موقف الموثوق من نفسه مخاطبا الإنسان؛ "أيها الإنسان، من أي قطر كنت، وأي كانت آراؤك ومذاهبك، اسغ سمعا، هذا تاريخك كما توهمت أني أقرأه، لا في كتب

أمثالك من الناس الذين هم كاذبون، بل في الطبيعة التي لا تكذب أبدا، وكل ما هو منها فهو صادق"[1].

ولم تفت روسو الإشارة إلى الفلاسفة والمشرعين الذين أحسوا بالرجوع إلى الطبيعة لتأسيس نظمهم الاجتماعية والسياسية قبله، ولكن، كما يقول: لم يصل إليها أحد منهم[2]"[3]. وما توصل إليه من قراءته لطبيعة الإنسان، هو أن الأساس الذي قامت عليه حياته السعيدة هو العاطفة، بحيث إن كان هذا الإنسان المتوحش كما يقول روسو؛ "هائما على وجهه، ولا صناعة له ولا كلام له، ولا مسكن له، ولا حرب، ولا ارتباط ولا حاجة لأمثاله، ولا رغبة له في إضرارهم، بل ربما كان لا يعرف أحدا منهم معرفة شخصية، وإذا كان [في حاجة] إلى قليل من الشهوات، كافيا نفسه بنفسه، نستنتج أن ذلك الإنسان المتوحش لم تكن لديه إلى العواطف والمعلومات اللازمة للحال التي كان فيها".

والحالة الطبيعية التي عاشها الإنسان الأول، في نظره، لا تكاد تختلف عن الحالة الطبيعية للحيوان، "إلا بنسبة الأكثر إلى الأقل، كما يقول، حتى أن بعض الفلاسفة ذهبوا إلى [القول] بأن يوجد من الفرق، بين إنسان ما وإنسان آخر أكثر مما يوجد بين هذا الإنسان وحيوان ما "[4].

وعليه، فلا يكاد يختلف الإنسان في الحالة الطبيعية من حيث العواطف التي وجهت سلوكه البريء عن الحيوان، وهنا يحاول لفت انتباهنا إلى السلوك العاطفي لهذا الأخير، "فالخيل تنفر من دوس جسم حي، وأن حيوانا ما لا يمر بالقرب من حيوان[آخر] من نوعه ميتٍ إلا استشعر بالقلق، وخوار البهائم المحزن عند دفعها إلى المجزرة، نذير على شعورها بما ستراه من مشهد مرعب"[5]. وإذن، فإن الشفقة والرأفة والعاطفة، هي الكوامن التي وجهت سلوك الإنسان في الحالة الطبيعية، وهي لا تكاد تختلف عما هو عليه الحيوان.

ويستدل على أهمية دور الميول العاطفية لدى الإنسان في توجيه السلوك والقيم الأخلاقية إلى ما قاله بعض الفلاسفة: "بأن الناس مهما [اقتبسوا] من علم الأخلاق، كانوا يعدون مسوخا، لولا ما وهبت لهم الطبيعة من عاطفة رأفة تشد أزر العقل"[6].

غير أن روسو لا ينفي الطبيعة العاطفية للإنسان المتمدن، إلا أنها تختلف عما كانت عليه لدى الإنسان في الحالة الطبيعية، فهي "غامضة، حادة محتدمة في الرجل المتوحش"[7]، وهي واضحة جلية، في الإنسان المتمدن، إلا أنها ضعيفة لديه[8]، وهنا يحمل مسؤولية ضعف المشاركة العاطفية لدى الإنسان المتمدن للعقل، وما ترتب عنه من علوم وفنون ونظم سياسية واجتماعية ميزت بين الناس، ورفعت البعض دون البعض، وقللت

من المشاركة الوجدانية للآخرين، وعمقت الروح الأنانية للإنسان المتحضر. فالعقل، كما يقول: "هو الذي يولد الأنانية، والتفكير هو الذي يغذيها"[9].

وهنا، تتاح له الفرصة للكلام عن الفلاسفة والعقلاء وما يميز سلوكهم تجاه الآخرين، وأهم ميزة تميز الفيلسوف هو الانطواء على الذات والاقتصار على محادثة نفسه، والابتعاد عما يحزنه أو يزعجه، فإذا ما رأى رجلا يتعذب يقول سرا في نفسه، "أهلك إن أردت أنا في مأمن"[10].

ولا يبالي الفيلسوف في نظر روسو إلا بالمخاطر التي تهدد المجتمع برمته، أما ما يتعلق بالأفراد كما يقول: فإنه يمكن لمن يشاء من الناس أن يذبح تحت نافذة الفيلسوف أحد أمثاله من البشر، [فالفيلسوف] لا يبالي، بل يعمد إلا سد أذنيه بيديه"[11]، وأكثر ما يفعله إن فعل، هو أنه" ينصرف إلى وضع [بعض] الأقيسة المنطقية والبراهين الفلسفية لكي يمنع الطبيعة[12]"[13] من عدم امتداد شعوره نحو ذلك الذي يذبح[14]. ويضرب أمثلة لذلك بالأحداث والمشاجرات التي تنشب في الشوارع والأسواق بين الأفراد، حيث يتجمهر السوقة وعامة الناس ونساء الأسواق وحثالة القوم للفصل بين المتخاصمين، بينما لا يبالي الفطناء من الناس بذلك ويمرون في هدوء دون أن يحركوا ساكنا[15].

وللتمييز بين أخلاق الإنسان في الحالة الطبيعية وأخلاق الإنسان المتحضر، فإنه يرى بأن لإنسان في الحالة الأولى يعيش في ذاته، بينما يعيش الإنسان الثاني خارجها، إي أن هذا الأخير لا يعرف العيش إلا من خلال ما يراه، ويحكم به الآخرون. ويتولد عن هذه الحالة النفسية، "قدر كبير من اللامبالاة بالخير والشر.. وكيف أن كل شيء يرد إلى المظاهر يصبح مفتعلا متكلفا"[16]. وأكثر ما يثير العجب في نفس روسو، هو"كيف أننا، إذ نسأل الآخرين عن أنفسنا دائما، وأن لا نجرأ على طرح هذا السؤال عن أنفسنا بالذات... كيف أننا لا نملك إلا مظهرا خداعا باطلا، لشرف بلا فضيلة، ولعقل بلا حكمة، وللذة بلا سعادة"[17].

وفي سياق نقده للعقل وأثره السلبي على الأخلاق، فهو ينكر أن يكون تقدم العلوم والفنون مفيدا وفعالا لتطور الأخلاق، بل العكس، "إن هذا التقدم يؤدي إلى الفساد الأخلاقي باستمرار"[18]، وعنه يتولد البذخ نتيجة العبث وفراغ الوقت[19]"، ومآل البذخ حتما انحلال الأخلاق، الذي يؤدي بدوره إلى الغنى والرشوة"[20]، وهو كما يقول، مظهر دال على الغنى، وإن شئنا، فإنه من عوامل مضاعفته[21]. وإذا كانت العلوم المعاصرة غير نافعة في مضمونها، فهي أيضا خطيرة فيما يترتب عن نتائجها من مساوئ لا حصر لها[22].

وعليه، فهو يرى، أنه "منذ بداية ظهور العلماء بيننا، حسب أقوال فلاسفتهم، انكسف نجم رجال الخير والأخلاق"[23]، وأن الرومانيين كانوا سعداء "بممارستهم للفضيلة، فضاع منهم كل شيء، عندما أخذوا يدرسونها"[24].

وإن افتقر الإنسان في الحالة الطبيعية إلى العلوم والفنون، فإن الطبيعة هي التي اقتضت ذلك لحمايتنا من العلم، كمثل الأم التي افتكت سلاحا خطيرا من أيدي وليدها"[25]، خوفا من أن يلحق ضررا بغيره وبنفسه، وعليه؛ "فإن مساوئ العلم على أخلاق المجتمع تفوق محاسنه"[26]. ويهاجم في كتابه (في العقد الاجتماعي) هوبز *Hobbes* (1588ـ1679) خاصة، الذي يرى "أن الإنسان في الحالة الطبيعية، قبل تشكل الحالة المدنية والاجتماعية، كان في حرب دائمة..هي حرب الجميع ضد الجميع"[27]، إذ ينفي روسو ذلك ويحاول إبطال وجود حرب بين إنسان وإنسان، فالحرب الخاصة، أو حرب الإنسان للإنسان لا يمكن أن توجد، لا في الحالة الطبيعة،.. ولا في الحالة الاجتماعية"[28]، ويبرر ذلك بأن الحرب "ليست علاقة بين إنسان وإنسان فقط، وإنما [هي] علاقة بين دولة ودولة، لا يكون الأفراد أعداء فيها، إلا بصفة عارضة، لا كرجال قط ولا حتى كمواطنين"[29].

وحينما يدافع روسو عن الحالة الطبيعية التي مر بها الإنسان البدائي كما يعتقد، ويهاجم الحالة المدنية التي عليها الإنسان المتحضر، فإنه يدافع عن العاطفة كأساس للقيم الأخلاقية ضد العقل وما ترتب عنه من علوم وفنون وآداب وحضارة انعكست سلبا على القيم.

ولكن تناول روسو لموضوع الأخلاق في مؤلفاته كما نرى، لا يعني أنه من أصحاب المذاهب الأخلاقية الكبرى، أو أنه منظر من كبار المنظرين في الأخلاق، بل يعد كلامه مجرد كلام عارض جاء في سياق بحثه عن عدم المساواة بين الناس، وفيما إذا كان هذا، طبيعي فيهم أم اصطناعي، وكيف يمكن قيام النظم السياسية والاجتماعية على أسس طبيعية تلغي التفاوت الطبقي، وعدم المساواة بين الناس، وبموجب هذا، نرى أن فكر روسو يسير في اتجاهين؛ "الأول نحو حرية الإنسان [وسعادته] في الماضي، والثاني؛ نحو إقامة نظام حكم في المستقبل، يمكن [قيامه] على إرادة أولئك الذين يخضعون لسلطته"[30].

وإفراط روسو في تفضيل الحالة الطبيعية التي عاشها الإنسان البدائي، على الحالة الاجتماعية أو السياسية، وتمجيد أخلاق العاطفة على حساب أخلاق العقل، ومقارنة الإنسان البدائي بالحيوان، عرضه إلى السخرية والنقد، إذ من بين الذين ردوا عليه في مراسلاتهم إياه بعد نشره لمقالتيه[31] في هذا المجال، فولتير *Voltaire* (1694/1778) الذي قال له في مستهل رسالته، بعد شكره والثناء عليه، "إنه لم يكرس أحد فكره قبلك لردنا إلى

مرتبة البهائم بقدر ما فعلت، بحيث يرغب من يقرأ كتابك في أن يمشي على أربع قوائم"[32].

وحاول فولتير إثبات العكس، مدافعا عن العلوم والفنون والآداب، والدور الذي لعبته في تهذيب سلوك الناس، والمنافع التي حصلت للبشر بموجبها، إذ قال روسو بأسلوب الأديب: "إن الأشواك أو الشوائب الملتصقة بالآداب مع قليل من الشهرة، ما هي إلا أزهار مقارنة بالشرور التي أغرقت الأرض في كل زمان"[33]. وأكد فولتير منتصرا للعلوم والفنون والآداب، وبالتالي العقل ضد الجهل، وما ترتب عنه من شرور، بأخذ العبر من التاريخ، إذ "أن الجرائم الخطيرة(المهولة) لم تتأت إلا من كبار الجهلاء"[34]، ويذكر جملة من السياسيين الجاهلين الرومان الذين ملئوا الدنيا عبثا وفسادا[35]، من أمثال (ماريوس) *Marius* (تـــ. سنة 44 ق.م) الذي كان جاهلا، و(سيلا) *Sylla* (تـــ. سنة 86 ق.م) (الذي يصفه بالبربري *le barbare Sylla*، و(أنطوان)*Antoine* الفاسق، و (ليبيد) *Lépide* (البليد) وأكتاف سيبياس) *Octave Cépias* الجبان.

ويرى "أن جرائم الاغتيالات البغيضة لم تحدث إلا في زمان حرم المجتمع فيه من الأدباء"[36].

وفي الحقيقة، إن الإشادة بأحد الطرفين دون الآخر، ليكون أساسا للأخلاق والفضائل دون غيره، أي العاطفة والعقل، لا يزيد إلا في تعقيد الأزمة وغموض المسألة وتمزق لكيان الإنسان الذي هو كل لا يتجزأ، ولا يقتصر على هذا دون ذاك، إذ لا تعارض بينهما في الغالب، أو أنه لا يوجد كائن يدعى إنسانا، وهو يخلو من مظاهر العقل أو من مظاهر العاطفة، إنما الاختلاف في الدرجة.

فالعقل،" كما يبشر به الأخلاقيون التقليديون، سلبي قصير الأمد، قاصر عن أن يمهد السبيل لحياة رغدة"[37]، والعاطفة التي لا يوجهها عقل هراء وسيل جارف، قد تكون نتائجها وخيمة.

وعليه، فالمذهب الإنساني كما يرى وليام جيمس، "أن تصبح صاحب فكر استقرائي، تستطيع أن تبتعد عن التعريفات والتحديدات الصارمة، وتستند على أفكار أكثر ليونة ومرونة، وبمعنى آخر..أن يصبح عقلك عاطفيا"[38]. أي أن الترابط المتماسك بين العقل والعاطفة، هو الذي يقوي الأخلاق ويغرس الفضائل في كيان الإنسان، ورغم ارتباط العقل بالأشياء المتصورة، وارتباط العاطفة بالأفعال الإرادية، فإن هذا لا ينفي الصلة بينهما، "إذ أن التعاطف هو الذي يحرك العقل حركته الأولى، وأن العقل هو الذي يهب التعاطف عالما معقولا يتبع التواصل بين الأشخاص"[39].

وعليه، يمكن رفض دعوى روسو في إمكان قيام الأخلاق على أسس عاطفية محضة، حتى "لا يعود ثمة داع للبحث عن الأفكار في أي مكان آخر"[40]، بل لا قيمة لهذه الأخلاق والفضائل في غياب العقل، والعكس صحيح، وأن الطبيعية البشرية واحدة في حقيقتها، لا تخلو من العقل ولا من العواطف، وإنما المسألة مسألة درجة، فقد يتغلب العقل على العاطفة وقد تطغى العاطفة على العقل في بعض المواقف، ولكن لا ينفي حضور أحدهما وجود الآخر، والعبرة في توازن وانسجام الاثنين كأساس متين للأخلاق الفاضلة لدى الإنسان، أينما وجد وفي أي عصر كان.

ــ الهوامش:

1. جون جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة بولس غانم، موفم للنشر، الجزائر1991، ص: 34.
2. ويعني بذلك خاصة أفلاطون وأرسطو وهوبزوغيرهم.
3. جون جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص: 32.
4. نفسه، ص: 79.
5. نفسه ،ص: 49.
6. نفسه، ص: 70.
7. نفسه، ص: 71.

12.11.10.9.8 نفسه، ص: 72.

13. يسخر روسو هنا من المبالغة في استعمال العقل النظري الصارم الذي يحجب الفيلسوف عن المشاركة الوجدانية للآخرين.

15.14. جون جاك روسو،مصدر سابق، ص: 72.

16. نفسه، ص: 73.
17. نفسه، ص: 134.
18. نفسه، ص: 135.
19. ألان بلوم، جون جاك روسو، موسوعة ليو شتراوس وجوزيف كروبسي، في تاريخ الفلسفة السياسية، ترجمة محمود سيد احمد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر2005، ص: 137.
20. J .J. Rousseau, discours sur les sciences et les arts, Garnier- Flammarion, Paris 1971, p49.
21. Ibid, p45.
22. Ibid, p49.
23. Ibid, p48.
24. Ibid, p45.
25. J.J. Rousseau, lettre de J.J. rousseau, sur la réfutation de discours, par M. Gautier, voir discours sur les sciences et les arts, Garnier- Flammarion, Paris 1971, p65.

26.27. J.J. Rousseau, réponse au roi de Pologne, Duc de Lorraine, voir, discours sur les sciences et les arts, Garnier- Flammarion, Paris 1971, p77.

28.Thomas Hobbes, De Cive, ou les fondements de la politique, édition Sirey, Pa ris, 1981, p87.

30.29. جون جاك روسو، في العقد الاجتماعي، ترجمة دوقان قرقوط ، دار القلم، بيروت ــ لبنان، ص43.

31. ألان بلوم، جون جاك روسو، موسوعة ليو شتراوس وجوزيف كروبسي، في تاريخ الفلسفة السياسية، ترجمة محمود سيد احمد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر2005، ص: 137.

32. المقالان هما:

أصل التفاوت بين الناس Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes

ومقال في العلوم والفنون Discours sur les sciences et les arts

33. 34. 35. 36. 37.Voltaire, lettre de Voltaire à M. J.J. Rousseau, voir, les deux discours, ibid. p239.

38. برتراند راسل، نحو عالم أفضل ، تـــ. درينى خشبة، وعبد الكريم أحمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2007، ص18.

39. ويليام جيمس، معنى الحقيقة، تـــ. أحمد الأنصاري، المركز القومي للترجمة، ط. 1 القاهرة 2008، ص60.

40. تيسير شيخ الأرض، الفحص عن التفكير الفلسفي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1993، ص426.

41. جون جاك روسو، اعترافات، ج3، أصدرته مؤسسة حلمي مراد؛المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر؛ القاهرة؛ جون تاريخ؛ ص41.